Journal of Faslo el-khitab مجلة فصل الخطاب
ISSN:1071-2335/ E-ISSN:2602-5922/ Legal Deposit N°: 2012-1759
مجلد 12، عدد رقم: 01، مارس 2023، صص: 07- 30
تاريخ الاستلام(2021/05/07)تاريخ القبول(2023/02/21) تاريخ النشر (2023/03/30)

حجاجية المنجز الكلامي في النظرية الجاحظية

The Criteria of Argumentative Speech in the Eljahiz's Theory

سليمة محفوظي
جامعة محمد الشريف مساعدية، سوق أهراس(الجزائر)، salima.mahfoudi66@gmail.com

ملخص:
تتأتّى فاعلية الخطاب وقدرته على التأثير والإقناع من خلال طريقة بناء النص، وتعاضد عناصره وتلاؤمها، ذلك أننّا نتوجّه بالخطاب إلى فئات تختلف في تصوراتها وعاداتها ونظرتها للحياة، وعليه وجب أن يُكيّف الخطاب الحجاجيّ بحسب توجهات كلّ فئة، حتى يكسب المُخاطِب تأييد المستمع ويظفر بالتجاوب الذي ينشده الحجاج. لقد شكّل نثر الجاحظ علامة تحوّل في تاريخ بلاغة النّثر العربي، ذلك أنّه تمكّن من تدشين عهد جديد على مستوى الكتابة النّثرية، استطاع فيه أن ينقل مفهوم البلاغة من الإطار الجمالي الضيّق الذي آثرته الثّقافة العربية طويلاً.إلى إطار آخر قام أكثر ما يكون على الأبعاد الوظيفية والتّداولية المستجيبة لدينامية الفعل التّواصلي، بين منتج ومتلق، في وقت كانت "أدبية" النّص العربي ما تزالمرادفة "للشّعرية" ومساوية لها، واعتُبر الخروج عن القوالب المعيارية والمواصفات النّمطية شذوذاً وانحرافا عن المواضعات المتفق عليها.

كلمات مفتاحية: بلاغة؛ تداول؛ إقناع؛ الجاحظ؛ متلقي؛ نثر

Summary:
The discourse effectiveness and its ability to influence and persuade comes through the method of constructing the text, the solidarity of its elements, and their compatibility. Owing to this, we address the discourse to groups that differ in their perceptions, habits, and outlook on life and it is necessary for the argumentative discourse to be adapted according to the orientations of each group. So that the speaker wins the listener's

المؤلف المرسل: سليمة محفوظي، الايميل: salima.mahfoudi66@gmail.com

support and gains the response sought by the argumentation .The Al-Jahiz's prose marked a turning point in the history of the rhetoric of Arabic prose, as he was able to inaugurate a new era in prose writing, in which he was able to transfer the concept of rhetoric from the narrow aesthetic framework that Arab culture had long favored, to another one based more on functional dimensions. The pragmatism responding to the dynamism of the communicative act, between a producer and a recipient, at a time when the "literary" of the Arabic text was still synonymous with and equal to "poetry", and the departure from the normative forms and the stereotypical specifications was considered an anomaly and a deviation from the agreed issues.

Keywords: Rhetoric ; Pragmaticism; persuasion; El Jahiz; receiver; prose.

1. مقدمة:

لم تبن النظرية البلاغية للجاحظ تصوراتها ضمن حدود ضيقة من المجاز الذي يذعن في أبعاده لمقولات جمالية، من قبيل التشبيه والاستعارة، وغير ذلك، وإنمّا نظرية حاول من خلالها الكشف عن الأبعاد التداولية للبلاغة العربية من خلال إسهاماته النثرية، راهن بنصوصها على بلاغة رحبة، تتجاوز آفاق التخييل إلى آفاق تداولية، تستند في مكوناتها الجوهرية إلى عناصر تواصلية وأدوات حجاجية محددة، ولعل في مؤلفاته ما يثبت للدارس حضور البعد الحجاجي للبلاغة، باعتباره ملمحا بلاغيا يسترجع للبلاغة ما تم إغفاله في كثير من المصنفات البلاغية في تراثنا العربي القديم[1].

لقد تعدّدت مصادر فكر الجاحظ ومعارفه، ذلك أنه ألمّ بثقافة اليونان من كتبهم المترجمة، وتأثر بأرسطو إلى حدّ بعيد، كما اطلع على الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع، فكان غزير العلم، واسع الاطلاع، وهو كما وصفه القاضي عبد الجبار(ت415هـ) "هو نسيج وحده في العلوم لأنّه جمع إلى علم الكلام والفصاحة، العلم بالأخبار، والأشعار، والفقه، وتأويل الكلام، وهو متقدم في الجد والهزل"[2].

وذهب المسعوديُّ (ت345هـ)أن كُتب الجاحظ "تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان لأنّه نظّمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوّف من ملل القارئ، وسآمة السّامع، خرج من جد، إلى هزل، ومن حكمة بليغة، إلى نادرة طريفة، وله كتب حسان منها:البيان والتّبيين، وهو أشرفها، لأنّه جمع فيه المنثور والمنظوم، وغُرر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به، وكتاب الحيوان، وكتاب الطفيليين، وكتاب البخلاء، وسائر كتبه في غاية الكمال"[3]

لقد أحسّ الجاحظ بضرورة الانفلات من عقال الوجه البلاغي ومحنة النمذجةإلى بلاغة أكثر رحابة، استجابة للمعطيات الجديدة، وللتحولات التي عرفها المجتمع في فترة عرفت نفور الذوق المعاصر له من أغلال البديع، فاجتهد عن وعي لميلاد بيان جديد، وتصوّر مختلف عن الكتابة عما هو عليه عند سابقيه، وفي مصنفات النقد الذي كان ينظر إلى الشعرية معيارا للعملية الإبداعية، بها يقاس الرديء في الأدب من جيده. والحق أن هذه البلاغة النثرية المتميّزة عن البلاغة الشعرية التي أرسى دعائمها "هي التي لفتت نظر القدماء بانزياحها عن معايير تلقيهم الأدبي، حيث أشاروا إلى جملة من السّمات في نثره تثبت خصوصية البلاغة التي قامت على التناقض والهزل والحجاج والموسوعية"[4].

وإذا كانت التّداولية تدرس اللّغة أثناء الاستعمال، فإنّ البلاغة تُعرف على أنّها"فن القول"[5] أي؛ المعرفة باللّغة أثناء الاستعمال، فالتّداولية والبلاغة يتقاربان في المفهوم، ويتقاسمان الاهتمامات نفسها .

من هنا كانت الإشكالية المحوريّة لموضوع البحث هي: ما أهم العناصر المشكّلة لنظرية التواصل لدى الجاحظ؟ التي تفرعت عنها عدّة تساؤلات منها: ما معايير إنتاج الخطاب الحجاجي عند الجاحظ؟ ما مواصفات المتكلّم لإنجاح العملية التواصلية لإحداث التغيير؟ ما سبل الولوج إلى عالم المتلقي؟

2.-البيان عند الجاحظ:

إن البلاغة في دلالتها اللّغوية مجاورة لمعاني الوصول والانتهاء والبلوغ "الوصول إلى الشيء، ومنه أُخِذتْ البلاغةُ التي يُمدَح بها الفصيح اللسانِ، لأنه يبلغ بها ما يريده."[6]فالكلام البليغ عند العرب هو الخطاب الذي استهدف المتكلّم منه مخاطبه فوصل إليه وتمكّن منه، ولذلك قال أبو هلال العسكري: "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السّامع، فتمكّنه في نفسه، كتمكّنه في نفسك"[7]، وقوله أيضا: "إنهاء المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"[8]

وقبل أن تصبح البلاغة حيزا متحقّقا عند الجاحظ فهي معرفة - واعية وأولية بإمكانات وحدود صناعة القول البليغ، لذلك عادة ما يلفي الباحث في متفرقات الرّجل كلاما عن البلاغة، باعتباره "أحد مؤسسي بلاغة النّثر أو السّرد بمفهومها الجمالي والإنساني، ولعلّ جهده في تأصيل النّثر في نسيج الثّقافة العربية الرّسمية المفتونة بالشّعر أن ينبهنا إلى التّحول الذي أنجزه في مفهوم البلاغة في تراثنا الأدبي"[9]، فمثلا" إصابة المعنى والقصد إلى الحجّة مع الإيجاز ومعرفة الفصل من الوصل"[10] هو واحد من بين التّحديدات التي أسندها الجاحظ إلى

البلاغة، لم يخرج فيه كثيرا عن تعريفات علماء البلاغة المتعارف عليها عموما بل يتقاطع هذا التّعريف مع عدد منها، وممّا ينال من اهتمام الباحثين في هذا الحيز، هو كيف شكّل الجانب الحجاجي المرتبط بإبلاغ المعنى أحد الدّلالات الاصطلاحية للبلاغة.

نركّز مع الجاحظ على محدّدين رئيسيّن هما إصابة المعنى والقصد إلى الحجّة، وذلك طبعا إذا ما تغاضينا من باب التّجوز عن مقوم الإيجاز، ومعرفة الفصل من الوصل ما دام "الأوّل منهما خلق بعضا من الخلاف حول اعتباره مقوّما ثابتا أم لا، أو لنقل -على الأقل- أنه كان هناك لا اتفاق في خصوص فهم معنى هذا الإيجاز، وما دام العنصر الثّاني أيضا مقوّما بديهيا قد لا يحتاج -فيما نعتقد- إلى بيان"[11].

بما أنّ البلاغة باعتبارها إصابة للمعنى، تقتضي منا أن نقف عند حدود مفهوم المعنى أولا، والكشف عن علاقته بقصد الحجّة ثانيا، وعليه يمكن القول في خصوص المعنى إنّ كثيرا من الدّراسات حاولت محاصرة هذا المفهوم، وهو ما أشار إليه "ستيفن أولمن (Ullmann Steven) حين قال: "تناول هذا الموضوع عدد من النّظريات والآراء الدّقيقة، وغير الدّقيقة على السّواء، واستخدمت في دراسته مجموعة ضخمة جدا من المصطلحات المتضاربة المتداخلة، حتى إنّ المعنى كاد يفقد أهميته وصلاحيته للدّراسة، كما أن عددا غير قليل من الدّارسين قد تعمدوا إخراجه من بحوثهم"[12].

وتجنبا لاستشكال الأمر أكثر مما يجب، بوسعنا أن نشير إلى تجربة (حسن طبل) الذي لاحق معنى المعنى في التّراث النّقديّ العربيّ حتى نهاية القرن الرّابع الهجريّ، ليخلص إلى أن هذا المفهوم حظيّ بتنوّع وتعدّد على صعيد الدّلالة، وذلك حسب مجالات وسياقات استخدامه، بحيث دلّ على (الغرض)و(الفكرة المجردة)، كما دلّ على (المعنى الفني)و(المعنى المعجمي) [13].

إنّ ما يهم في هذا الشأن، هو أن المعنى الذي يهدف المتكلّم إلى إصابته سيكون نسقا من الأفكار، يرمي إليه صاحب القول الذي يفترض أن يرسخ في ذهن السامع، وذلك على صورة من الإدراك السّليم، لأنّ هدف الكلام "ينبغي أن يكون في النهاية التّوصيل بدرجة ما، وسواء كان الكلام بسيطا مباشرا، أم عميقا غير مباشر، فإنه ينبغي أن يحمل داخله مفاتيح تساعد على إدراكه وتذوقه"[14] في هذه الحالة يمكن اعتبار المعنى هو القصد. فما علاقة استهداف المعنى أيضاً باعتبار الحجّة؟

إذا علمنا أنّ "الإيجاد يمثل في إطار نموذج الإنتاج النّصي، فن اكتشاف المواد الحقيقية والمحتملة القادرة على جعل موضوع الخطاب ممكنا، وهي في أماكن محددة تسمى

المواضع"[15].وطبعا هذه المواضع ليست متروكة لصدف البحث وعلى المتكلم الاجتهاد في البحث على الوسائل التي يتوسل بها لإقناع المتلقي كالحجج والبراهين، والمكون العاطفي لما له من تأثير في السامع. ومن هنا قد أمكننا "أن نصف عمل الحجة القول البليغ-مهما كان شكله- بسمة المحايثة والمصاحبة التي يتطلبها المسعى إلى إصابة المعنى، فالحجج قد تأتي تارة مثبتة للمعاني محققة لها، وتارة مؤكدة للمعاني موضحة لها، وتارة مقربة للتحقيق والتثبيت، وخادعة للعقل موهمة بالصدق تارة أخرى، وذلك بحسب الأسلوب الذي تأتي فيه الحجة والمعنى الذي ترتبط به"[16] وهكذا لا يستقيم المعنى المقصود إلاّ بمراجعة المواضع لأنّها الأساس في فهم مقصد الخطاب، ويكون القصد خلال ذلك هو محور ونواة العملية التواصلية بين المتكلّم والمخاطب. علاوة على هذا يصبح "القول عند الجاحظ بوصفه خطابا يحتمل مقوماته الوظيفية وأبعاده التداولية، تحققا له أثره في متلقيه، خاصّة وفي المحيط المقصود به عامّة، وهذا أمر قد لا يكون فتحا جديدا على يديه، إلاّ أنه مع ذلك، أضاف استشعاره لجسامة صدى هذا الأثر الاعتباري للقول البليغ، والذي قد يصبح بابا من أبواب فتنة الناس، وإصابتهم في صلب منطقهم، ومرجعياتهم، ونظمهم الثقافية والدينية" [17]، وهو ما يمكن أن نكتشفه على سبيل المثال في مفتتح كتاب "البيان والتبيين" حين يقول: " اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل (...) وقديماً ما تعوذوا بالله من شرهما، وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما"[18]، فالخطاب قد يكون سببا من أسباب الفتن التي تؤدي إلى حروب، ومآسي، كما أنّه قد يصوّر الأمور على غير حقيقتها، فيغالط بذلك الرأي العام.

والبيان عند الجاحظ " تتنازعه ثلاثة معان أساسيّة، المعنى الأول هو الانتهاء إلى الغاية في التبيين والإفهام بأسلوب عال"[19] أيّ؛ الفهم والإفهام. من ذلك قوله: "مدار الأمر والغاية التي تجري إليها القائل والسّامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[20].

والمعنى الثاني هو الكلام البليغ نفسه، بما يتضمن من أصناف وأجناس ونلمس ذلك في قول الجاحظ "ونحن-أبقاك الله- إذا ادعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والأرجاز، ومن المنثور والأسجاع، ومن المزدوج ومالا يزدوج. "[21].

ويدل المعنى الثالث، على حسن الكلام، وجودته، ووضوح معناه وسهولته، إذ يعقّب الجاحظ على قول يحي بن معمر-وقد شكت له امرأة زوجها "أن سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلها وتضلها(...)فيقول: فإن كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنّه يدلّ على فصاحة فقد

باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة، ولو خاطب بقوله الأصمعي لظننت أنه سيجهل بعض ذلك"[22]

وبناء على ذلك، نسلم أن البلاغة عنده تقتضي الفهم والإفهام لقوله: "فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامّة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التّام"[23] وعليه؛ فالفهم والإيضاح، هما النّواة المركزية التي تقوم عليهما البلاغة عند للجاحظ، لذلك نجده قد "قايض **تعريف البيان** باعتباره فهما وإفهاما بالوسائل اللّغوية وغير اللّغوية بكلمة **بلاغة** (...)فقد كان يتحدث عن البيان باعتباره موضوعا للكتاب ثم صار يتحدث عن البلاغة باعتبارها الموضوع نفسه"[24]وفي هذا السّياق "يقايض المؤلف مرة أخرى فيتحدث عن **الخطابة** كمرادف **للبلاغة**"[25]، وهو ما يبيّنه القول التالي :"قال معاوية بن أبي سفيان لصُحار بن عياش العبدي: ما هذه البلاغة فيكم؟ قال: شيء تجيش به صدورنا، فتقذفه على صدورنا، فتقذفه على ألسنتنا، فقال له رجل من عرض القوم: يا أمير المؤمنين هؤلاء بالبُسر والرُّطب أبصر منهم بالخطب"[26]

نفهم من هذا الكلام أن البلاغة والبيان والخطابة مصطلحات تعبر عن نفس المفهوم أو نفس الموضوع خاصّة إذا علمنا أن في الفترة التي كتب فيها الجاحظ كتابه البيان والتبيين لم تضبط المصطلحات بشكل دقيق.

3-شروط الخطاب الإقناعي عند الجاحظ

ينصرف البيان عند الجاحظ إلى ثلاث وظائف عملية، الوظيفة الإخبارية أو التعليميّة، والتي تكتفي بتلقين المتعلّم علما ما، أو تصويب المُستعلم حول موضوع معيّن، وتزويده بالمعلومات اللازمة، أمّا الوظيفة الثانية فهي لاستمالة المتلقي ودفعه لتغيير أو تعديل مواقفه من باب خلب القلوب، وإبهارها، والوظيفة الثالثة هي؛ الوظيفة الحجاجية، أين تبرز الحجج، والأدلة لدحض أطروحة الخصم[27]، وهذه الوظائف تشكّل عمق النّظرية التّداولية في الدّراسات المعاصرة باعتبارها تهتم بالتّواصل، والإقناع، والتأثير.

والمتصفح كتاب "البيان والتبيين" يلمس اهتمام الجاحظ بالخطب، والمتكلّم، والسّامع "فكان أوّل من أفاض الحديث عن الخطبة، وسياق الخطبة، وتوسع في دور كلّ طرف من أطراف العملية التّخاطبية: المتكلّم، والسّامع، والنّص في جعل النّص بليغا مؤثرا مقنعا "[28] فالقول الخطبي يكون "للخصومة...ومنازعة ومناضلة الخصوم.... وفي الاحتجاج

على أرباب النحل ومقارعة الأبطال"[29] .ويرى أيضا أن القول الخطبي يَصحّ في" محاجة الخصوم ومناقلة الأكفاء ومفاوضة الإخوان"[30] .بهذا يكون قد حدّد مجالات القول الخطبي.

وبما أن الأمر يتعلّق بالإقناع، والتأثير، فقد اعتنى بالشّروط التي من شأنها أن تضمن نجاح الخطاب، وتصل به إلى الغاية المنشودة. ومن بين هذه الشروط التي تناولها، ما يتعلّق بالمواصفات التي يتوجّب توفرها في كلّ خطيب، وقد كان للغة النصيب الأكبر، إذ بدونها "لا تقوم الوظائف الأخرى، التي لا تعدو أن تكون تطويرا لها، يؤدي إليه نوع المتكلّم، وجنس الكلام، فتصبح الخطابة مقاما من المقامات لا يختلف عن غيره، إلاّ ببعض المقومات...والجاحظ حريص على أن تؤدي هذه الوظيفة طبقا لشروط الفصاحة، وقواعد البيان، وعن هذين العاملين الرّئيسيين :الوظيفة والإبانة، نتجت المقومات الخاصّة بكلّ طرف من أطراف العملية اللغوية، خاصة المتكلّم والكلام"[31] . وما اهتمامه بشروط الفصاحة، وقواعد البيان، إلاّ تجنّبا لغموض الغرض الذي يرومه المتكلّم.

كما يرى ضرورة توظيف ما تزخر به اللغة العربية من "أمثال، واشتقاقات، وأبنية، وموضع كلام فمن لم يعرفها جهل تعريف تأويل الكتاب، والسّنة، والشّاهد، والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشّأن، هلك وأهلك"[32] فالمعرفة بقواعد اللغة، كالاختيارات المناسبة على مستوى التّركيب، والمعجم، وأزمنة الأفعال، وصيغ الكلمات، وأنواع الصّور، ومصادر التّصوير، من شأنه أن يسمح بإنشاء الخطاب البليغ، الذي يدفع بالمتلقي إلى تقبل ما يعرض عليه من أفكار . وهو ما تذهب إليه نظرية الحجاج المعاصرة، حيث "تعنى بثنائية بلاغة الحجّة وبلاغة أسلوبها، كشرطيّن متلازميّن لتحقيق الخطاب ونفاذه"[33] وذلك بالتّلازم بين الأسلوب والحجاج، والذي يتحقّق من خلال عرض الحجج، والبراهين بأساليب ممتعة، ومؤثرة لحمل المتلقي على الإذعان، أي؛ كل خطاب تحضر فيه الجمالية، والحجاج.

يقوم الخطاب الإقناعي عند الجاحظ، على ثلاث ركائز أساسيّة مجسّدة في المتكلّم، والمتلقي والخطاب، وهي في الحقيقة عناصر تناولها أرسطو بالشّرح والتفصيل، في كتاب "الخطابة" وهذا الأمر لا يقلّل من أهميّة ما ذهب إليه الجاحظ باعتباره "أول مفكّر عربيّ نقف في تراثه على نظرية متكاملة، تقدر أن الكلام وهو المظهر العملي لوجود اللّغة المجرد، ينجز بالضرورة في سياق خاصّ، يجب أن نراعي فيه بالإضافة إلى النّاحية اللّغوية المحضة جملة العوامل الأخرى، كالمتكلم، والمقام، وظروف المقال، والسامع "[34].

وتتمثل المستويات التي وردت في النظرية البلاغية للجاحظ فيما يأتي:

1.3-مستوى اللغة

تناول الجاحظ كلّ ما يتعلق بالمواصفات التي يتوجّب توفرها في لغة الخطاب، إذ بدونها "لا تقوم الوظائف الأخرى التي لا تعدو أن تكون تطويرا لها، يؤدي إليه نوع المتكلم، وجنس الكلام (...)وكان حريصا على أن تؤدي هذه الوظيفة طبقا لشروط الفصاحة، وقواعد البيان، وعن هذين العامليْن الرئيسيّيْن :الوظيفة، والإبانة، نتجت المقومات الخاصّة بكل طرف من أطراف العملية اللغوية، خاصّة المتكلّم والكلام"[35].

نلاحظ أنّ اهتمامه باللّغة ينبع من اهتمامه بالبيان بمفهومه العام، الذي يصبو للإقناع واستمالة القلوب، من خلال الكلمة المعبّرة، والأسلوب البليغ، وهذا ما يفسر توثيقه لأعلام الخطابة إلى عهده، والذين خلدتهم خطبهم، لما حملته من حسن وبيان، ويقول في هذا الموضع: "و العرب تذكر من خطب العرب "العجوز"، وهي خطبة لآل رقبة، ومتى تكلموا فلابد لهم منها أومن بعضها، و"العذراء" وهي خطبة قيس بن خارجة، و"الشوهاء" وهي خطبة سحبان بن وائل، وقيل لها ذلك من حسنها، وذلك أنّه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر، ولم يخطب خطيب"[36]، فهذه الخطب التي أوردها الجاحظ تعدّ مثالا حيّا على تعايش جملة من الأساليب التّصويرية، وعلى الطاقة الإيحائيّة للغة من جهة، وبراعة هؤلاء الخطباء من جهة أخرى، فقد استطاعوا من خلال مهارتهم اللغوية أن يخلدوا أسماءهم.

كما اهتم بالمستوى الصوتي، لما له من أثر قوليّ، فحرص على تجويد التراكيب باصطفاء الألفاظ، وتحسين الصياغة بتنويع العبارة، وتقطيع الجمل، والمعادلة بينها، بعيدا عن الزخرف والتنميق حريصا على البيان، والإقناع "فكان لذلك صورة من شخصيته، يتهادى بها بين الإطالة والإيجاز ووضوح المعنى، والتفصيل والتقطيع الرصين...فتشيع جوا ملائما للمقام والحالة النفسية المعبر عنها مما يجعله سائغا في الذهن"[37]، ومن ذلك قوله : "وأين الحسن الخالص، والجمال الفائق والملمح المحض، والحلاوة التي لا تستحيل، والتمام الذي لا يحيل، إلا فيك، أو عندك، أو معك؟ لا بل أين الحسن المصمت، والجمال المفرد، والقد العجيب، والكمال الغريب، والملمح المنثور والفضل المشهور"[38] فتساوي الفواصل المصحوب بالتقطيعات الصوتية، نابعة من اختياره الألفاظ المؤتلفة مع بعضها، ممّا يزيد في التلاؤم، وفي الجرس، واقتران الحروف عنده يؤدي إلى تحقيق التجانس، والتناغم الصوتي، والإيقاع الموسيقي المتناسق في بنية الكلم، حيث تكون حروفها متآلفة متآخية، غير متنافرة،

أي؛ لا تؤلف الكلمة من حروف متقاربة المخرج، الأمر الذي يؤدي إلى ثقلها على اللسان، وتعثر المتكلّم عند أدائها ونطقها. نحو قوله في وصف مناقب وشجاعة الجندي التركي أثناء منازلة الأعداء: "ونحن فتحنا البلاد وقتلنا العباد وأبدنا العدو بكل واد...ولنا التعاير بالمثالب والتفاخر بالمناقب"[39]، فعنايته بالصناعة الصوتية مطلب يقتضيه المقام الخطابي الذي هو في الأساس مقام تأثير واستمالة فاعتماده على المقومات الصوتية والإيقاعية، يأتي لمقاصد تداولية فإثارة انتباه المستمع لا يكون بالحجج، أكثر مما يكون بتكرار لأصوات بعينها.

وامتد اهتمامه باللّغة إلى مستوى اللفظ ودلالته، لما له من أهمية في إعطاء الصّياغة صورتها الإقناعية، والجمالية، فيؤكّد أن الوضوح معيار من معايير البلاغة، ومظهر من مظاهر جمالها، ومطلب أساس من مطالبها، فإذا لم يتوفر في الكلام، فإنّه لا يحقّق الهدف، أو الغرض الذي سيق من أجله، وهو التّوصيل، من حيث إفهام المتلقي والتأثير فيه، فمبدأ الوضوح واعتماد الدّلالة الصّريحة في علاقة اللّفظ بالمعنى، مشروطان بتحقيق وظيفة تبليغية وإقناعية.، يُستشف ذلك من قوله: "فاختر من المعاني ما لم يكن مستورا باللفظ المتعقّد، مغرقا في الإكثار والتكلّف، فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى، مع براعة اللّفظ، وغموضه على السّامع بعد أن يتّسق له القول، وما زال المعنى محجوبا لم تكشف عنه العبارة، فالمعنى بعد مقيم على استخفائه وصارت العبارة لغوا وظرفا خاليا، وشرّ البلغاء من هيّأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى، عشقا لذلك اللفظ، وشغفا بذلك الاسم، حتّى صار يجرّ إليه المعنى جرّا، ويلزقه به إلزاقا."[40] فالبيان عند الجاحظ، هو الدلالة الظاهرة على المعنى و"أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه"[41]

لقد كان الفهم والإفهام هما الهدف الأوّل من عملية التّواصل، لذلك كان الوضوح من أهمّ القضايا التي أولاها الجاحظ أهمية وعناية، من خلال تناوله للبيان، ويبيّن ذلك بقوله: "وليس يقوى على ذلك إلّا امرؤ في طبيعته فضل عن احتمال نحيزته، وفي قريحته زيادة من القوّة على صناعته، ويكون حظّه من الاقتدار في المنطق، فوق قسطه من التغلّب في الكلام، حتّى لا يضع اللّفظ الحرّ النبيل إلّا على مثله من المعنى، ولا اللفظ الشريف الفخم إلّا على مثله من المعنى."[42]

يرى الجاحظ أن القول البليغ يكمن في الوضوح، والإفصاح، لذلك عاب على اللغويين اختيارهم للغريب، ويحث على الاقتداء بالكتّاب، لأنه لم ير أمثل منهم في البلاغة،

فقد "التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيّا "[43] لأنّ البيان أقرب للتأثير والإقناع، بينما الغريب الوحشي "لم يكثر في كلام إلاّ أفسده، وفيه دلالة على الاستكراه والتكلف"[44] فيتحاشاه السّامع ويعرض عنه.

ويبدو أن حرصه على اختيار اللّفظ المناسب للمعنى المناسب ضرورة لفهم الرسالة، ومن ثمة إقناع المتلقي بصدقها، فلكلّ"معنى شريف أو وضيع هزل أو جدّ وحزم أو إضاعة، ضربا من اللفظ هو حقّه وحظّه، ونصيبه الذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصّر دونه، ولذلك قال أحد الشّعراء لصاحبه: أنا أشعر منك! قال صاحبه: ولم ذاك؟ قال: لأنّي أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه، فالوجه النافع: أن يدور في مسامعه، ويغبّ في قلبه، ويختمر في صدره، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت فكانت نتيجتها أكرم نتيجة، وثمرتها أطيب ثمرة، لأنّها حينئذ تخرج غير مسترقة ولا مختلسة ولا مغتصبة.. "[45]، فالثروة اللغوية ذات أهمية كبرى، لأنّها تساعد المرء على فهم كثير مما يقرأ أو يسمع، كما تعينه على التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة، والتنويع بين المترادفات ليعبر عن الموقف باللفظ المناسب له.

أمّا من حيث وضوح الألفاظ في إطار النظام اللغوي أو الكلام المركب، فهو أن يكون معناه مفهوما دون مشقة في البحث عنه، أو كدّ للذهن لاكتشافه، وذلك لخلوه من التعقيد، ومن كل مظهر من مظاهره، فالتعقيد مشتق من عقد "وعقد كلامه، أعوصه وعمَّاه، وكلام معقد أي مغمض "[46] فهو يدل على التعمية، ولبس المعنى، لسوء ترتيب الألفاظ وتأليفها. وحذّر الجاحظ من هذا العيب صراحة، وذلك فيما رواه من صحيفة بشر بن المعتمر" وإياك والتوعُّر، فإن التوعُّر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك"[47].

وقد أكّد في عدة مواضع بأن التّشادق من غير أهل البادية بغض، وأن الغريب الوحشي يفسد الكلام إلاّ أن يكون المتكلّم أعرابيّا، كما أن اللّحن يكون من مستقبح الكلام وعيوبه إذا صدر من أصحاب التشديق ومن على شاكلتهم، وأقبح منه إذا كان من الأعاريب إلا أنه يكون مقبولا ومستحسنا إذا صدر عن الجواري، وكان على السجية من غير تكلف، وتقبله المتلقي.[48]

وعلى هذا يكون المعول عليه عند الجاحظ في قبول المستوى اللغوي هو المتلائم مع المألوف من كلام المتكلّم، وهذا أمر نسبي، ومعنى هذا - كما يذكر الناقد عبد الحكيم راضي

- أن هناك "علاقة بين تقبل المتلقي للكلام، وصدوره من صاحبه على سجيته وبغير تكلف، والعكس أيضا صحيح، أعني العلاقة بين استهجان المتلقي للحديث وبين تكلف القائل واصطناعه لغة أو مستوى لغويا خلاف المعتاد منه "[49]، إذ لا يمكن الفصل بين الموقف اللغويّ وبين صاحبه، فاللغة ليست مجموعة ألفاظ وكلمات بقدر ما هي مجموعة من الأفكار، والأحاسيس، والمشاعر التي يعبر عنها باللغة، لتصبح صالحة لتلقي الغير لها، وعلى هذا " فالعلاقة قوية بين هذه اللغة، وبين من ينطق بها، وقوة العلاقة منشؤها أن صاحب الموقف اللغوي هو نفسه صاحب البعد النفسي الذي يؤثر بفاعليته في طبيعة، وترتيب، وأثر الموقف اللغوي"[50].

ومن حيث الملاءمة بين الكلام والمستوى الاجتماعي للمتلقي، يدعو الجاحظ إلى مراعاة المستوى الاجتماعي للمتلقين حين مخاطبتهم، لأنهم طبقات فلكلّ طبقة من الناس ألفاظ أليق بها، فربطه لفكرة الطبقية في المجتمع بالطبقية في الأدب، هو ربط يتسم بالدّقة، والحصافة من صاحب القاعدة الشهيرة (لكل مقام مقال) والتي حوّرها البلاغيون فيما بعد عند تعريفهم البلاغة بأنّها "الكلام حسب مقتضى الحال"[51]، فقال : "ألا ترى أنّ أبلغ الناس لسانا، وأجودهم بيانا وأدقّهم فطنة، وأبعدهم رويّة، لو ناطق طفلا أو ناغى صبيّا، لتوخّى حكاية مقادير عقول الصّبيان، والشّبه لمخارج كلامهم، وكان لا يجد بدّا من أن ينصرف عن كلّ ما فضّله الله به بالمعرفة الشريفة، والألفاظ الكريمة"[52]

على هذا النّحو كانت نظرة الجاحظ للغة التواصل، والإقناع، وهي تقترب - إلى حد بعيد - من نظرية الحجاج المعاصرة التي "تعنى بثنائية بلاغة الحجّة وبلاغة أسلوبها كشرطين متلازمين لتحقيق الخطاب ونفاذه"[53]، ممّا يتوجّب أن نحرص على إعادة قراءة تراثنا البلاغي والنقدي وإثراء أحدهما بالآخر .

لم يكتف الجاحظ بالجانب اللّغوي للقول في شكله اللّساني، إنّما أولى اهتماما بالغا بالمتكلّم وبالمقام الذي يرد فيه هذا الخطاب، باعتبار البيان عنده يشمل فنون القول المختلفة التي عرفها العرب أو أبدعوها، من قصيد، ورجز، ومنثور، وسجع . وسنحاول الوقوف عند كل عنصر من هذه العناصر التي تناولها، والتي لها دورا بالغ الأهمية في التواصل والإقناع.

2.3-مقتضيات المقام

كان الاهتمام بمقام الخطابة واضحا جليّا من خلال كتاباته المستفيضة حول هذا الموضوع وخاصّة في كتابه (البيان والتبيين)، ومن المعلوم أن مقام الخطابة يهتم بعلاقة المقال، وبالظرف العام الذي يتنزل فيه، ويمكن أن نحصر دلالة المقام في ثلاثة عناصر هي: جنس الكلام، المُخاطب والقصد[54]

1.2.3- جنس الكلام

يعدّ مقام "الخطابة من أهمّ ما جاء في مؤلفات الجاحظ، وهو يتطلب من المتصدر له أن يكون عارفا بمواضعها، ومناسباتها وفق ما تقتضيه، فمنها ما يكون بالكلام المنثور، مقفى وغير مقفى، في حين لا يأتي بعضها إلاّ مسجوعا، كما أن بعضها يتطلب الصنعة وتعهد الصياغة"[55]و طبعا كلها تفرض على الخطيب هيئة معينة، وطريقة معلومة في الإلقاء، حتى ينجح الخطاب ويؤدي دوره المنوط به.

جاء في تعريف أرسطو للخطابة هي "الكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أيّ موضوع كان"[56]، أمّا في المعاجم العربية فتحيل مادة (خطب) على" الشأن أو الأمر، صغر أو عظم، وقيل هو سبب الأمر. يقال : ما خطبك ؟ أي : ما أمرك ؟ وتقول : هذا خطب جليل، وخطب يسير . والخطب : الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال، ومنه قولهم : جل الخطب أي : عظم الأمر والشأن . وفي حديث عمر، وقد أفطروا في يوم غيم من رمضان، فقال : الخطب يسير وفي التنزيل العزيز: قال فما خطبكم أيها المرسلون ، وجمعه خطوب "[57]

وإذا تصفحنا كتب الأدب والتاريخ نعثر على عدّة تعريفات للخطابة، من ذلك ما ورد في كتاب (البرهان في وجوه البيان) "فأمّا المنثور فليس يخلو من أن يكون خطابة، أو وترسلا، أو احتجاجا، أو حديثا، ولكلّ واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه...فالخطب تستعمل في إصلاح ذات البين، وإطفاء نار الحرب، وحمالة الدماء، والتشييد للملك، والتأكيد للعهد، وفي عقد الأملاك، وفي الدعاء إلى الله عزّ وجلّ، وفي الإشادة بالمناقب، ولكل ما أريد ذكره، ونشره، وشهرته بين الناس"[58]

ويقدم العسكري(ت395ه)تعريفا للخطابة من خلال مقارنتها بالشعر فيقول: "وممّا يعرف أيضا أن الخطابة والكتابة، أنهما مختصتان بأمر الدين، والسلطان، وعليهما مجار الدار، وليس للشعر بهما اختصاص" [59] وأيضا قوله: "واعلم أنّ الرسائل، والخطب، متشاكلتان في أنهما لا يلحقهما وزن ولا تقفية"[60]، ويوضح العسكري من خلال الفقرتين أنّ

الرسائل والخطب تتعلقان بالشؤون العامّة (دينية، سياسة، اجتماعية)كما أنهما لا تخضعان للوزن والقافية كما هو الشأن بالنسبة للشعر.

بينما تكمن أهمية الخطابة عند الشريف الجرجاني في قدرتها على الإقناع كونها "قياس مركب من مقدمات مظنونة من شخص معتقد فيه، الغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم"[61]، لأنّها تعتمد على الحجج والبراهين، التي تحفز المتلقي على إعادة التفكير في توجهاته، والإقبال على ما يطرح عليه من أراء، وأفكار قد تعود عليه بالنفع .

ويؤكّد القلقشندي أنّ العرب عنيت بالخطابة عنايتها بالشّعر "واعلم أنّه كان للعرب بالخطبة والنثر غاية الاعتناء، حتى قال صاحب الريحان والريعان: إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور، ومزدوج الكلام، أكثر مما تكلمت به من الموزون، إلاّ أنّه لم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره، لأن الخطيب إنمّا كان يخطب في المقام الذي كان يقوم فيه في مشافهة الملوك، أو الحملات، أو الإصلاح بين العشائر...فإذا انقضى المقام، حفظه ممن حفظه ونسيه من نسيه" [62]

تتفق جميع التعريفات الواردة أن الخطابة فن مخاطبة الناس بطريقة إلقائية، ترتكز على الإقناع، والاستمالة، لأنها تتوجّه إلى العقل والعاطفة معا، وفقد اهتم العرب بالخطابة كاهتمامهم بالشعر، غير أن أغلبها ضاع لصعوبة حفظ المنثور، وتداوله بين الناس.

واهتمام الجاحظ بالبلاغة الخطابية ينبع من اهتمامه بالبيان، بمفهومه العام الذي يصبو للإقناع واستمالة القلوب، من خلال الكلمة المعبّرة، والأسلوب البليغ، وهذا ما يفسر توثيقه لأعلام الخطابة إلى عهده والذين خلدتهم خطبهم لما حملته من حسن وبيان.، ويقول في هذا الموضع: "و العرب تذكر من خطب العرب، "العجوز" وهي؛ خطبة لآل رقبة، ومتى تكلموا فلابد لهم منها، أومن بعضها، و"العذراء" وهي؛ خطبة قيس بن خارجة، لأنه كان أبا عذرها، و"الشوهاء" وهي؛ خطبة سحبان بن وائل، وقيل لها ذلك من حسنها، وذلك أنّه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر، ولم يخطب خطيب"[63]

كما أنه أعلى من شأن الخطباء في قوله "وليس حفظك الله، مَضرة سلاطة اللسان عند المنازعة، وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة، بأعظم ممّا يحدث عن العي من اختلال الحجة، وعن الحصر من فوت درك الحاجة(...)وهم يذمون الحصر، ويؤنّبون العيّ، فإن تكلفنا مع ذلك مقامات الخطباء، وتعاطينا مناظرة البلغاء، تضاعف عليهما الذمّ، وترادف

عليهما التأنيب "[64]، في إشارة منه إلى المكانة التي يحتلها الخطباء الأكفاء الذين برعوا في نسج خطبهم وإخراجها على النحو الذي تتطلبه الصنعة الخطابية .

2.2.3-المُخاطب

يستعرض الجاحظ أهمّ الصفات التي على الخطيب أن يتحلى بها ولعل أبرزها وأهمها تلك المتعلقة بالكلام، وهو العنصر الذي استفاض الجاحظ الحديث عنه في المواطن المتعلقة بالخطابة باعتبارها" نوعا من أنواع الكلام"[65] الذي يروم الإقناع والتأثير، فبالإضافة إلى جزالة الألفاظ وحسن سبكها وترتيبها واعتماد حسنها وتفادي وحشيها، وصحة مخارج الحروف ووضوحها، يسوق الجاحظ صّفة مهمّة ويلحّ عليها بشكل واضح، وهي "رباطة الجأش"[66]، التي تساعد المتكلّم على تخطي الصّعاب التي تعترضه، وتمكّنه من التّغلب على الخوف الذي قد ينتابه، فيضطرب ذهنه ويضعف تركيزه ويتسرب الشّك إلى قلبه، فتذهب كلماته.

ولا يغفل الجاحظ هيئة المتكلّم ولكنه يعالجها بطريقة موضوعية " فالبراعة في الكلام، والإبانة عن الغرض ليست مرتبطة بجمال الشكل، فكم من خطيب زري الهيئة، قبيح الشّكل، إذا تكلّم سيئ النّاس عيوبه، وشدهم كلامه وغضوا الطرف لحسن القول عن حسن القائل"[67]، وأحسن مثالا على ذلك، ما رواه الجاحظ عن الأحنف بن قيس قوله: "وروي الهيثم بن عدي عن أبي يعقوب الثقفي عن عبد الملك بن عمير قال: قدم علينا الأحنف بن قيس الكوفة مع المصعب بن الزبير، فما رأيت خصلة تذم في الرجل، إلاّ وقد رأيتها فيه، كان الرجل أصلع الرأس، أحجن الأنف، أغضف الأذن، متراكب الأسنان، أشدق، مائل الذقن، ناتئ الوجنة، باخق العين، خفيف العارضين، أحنف الرجلين ولكنه إذا تكلّم حلّى عن نفسه" [68]

يعدّ أسلوب الخطاب قوة ضاغطة يوظفها المتكلّم ليشدّ انتباه المخاطب، وذلك من خلال قدرته على إنتاج الأفكار، وترتيبها وصياغتها، فيحصل الإمتاع والإقناع، وربما كانت هيئة الخطيب من متطلبات إلقاء الخطب، إلاّ أن المستمع قد يتجاوز عنها إذا ما تمكّن المتكلم من إبهار المستمع بحسن بيانه، ورجاحة عقله وقوة حججه.

وإذا علمنا أن الغاية من الخطاب الإقناع، وجب مراعاة الفروق الذهنية للمستمعين، لأنّ طاقة الاستيعاب تختلف من شخص إلى آخر "فعلى قدر المستمعين ومن يحضره من العوام والخواص"[69]، بمعنى آخر، أن الخطاب لا يحقق هدفه إذا استعصى فهمه، لأنّ الفهم يرتبط

ارتباطا وثيقا بالقدرات العقلية للمتلقين، ولهذا جاء على لسان أحد العلماء "إنما النّاس أحاديث، فإن استطعت أن تكون أحسنهم حديثا فافعل"[70]

وقد أسهب الحديث في هذا العنصر، لما له من دور كبير في نجاح الخطاب، وبيّن أن "كلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم طبقات"[71]، وعلى المتكلّم أن يراعي تلك المستويات فلا "يكلّم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السّوقة"[72] فالإقناع يتحدد بمدى استمالة المخاطب والتأثير فيه، وتكييف الخطاب بحسب الطبقة التي يتوجّه إليها .

فمن الضروري أن يراعي المتكلّم شخصية مخاطبه، وبعبارة أخرى ينبغي أن يخاطب كلّ طبقة بالخطاب الذي تفهمه وتستوعب معناه، لأنّ الغاية من الخطاب الاستمالة والحث على القيام بفعل ما .

كما تناول مسألة شد انتباه السّامع إلى فحوى الخطاب وذلك بمراعاة مناسبة الخطاب فهذا الأمر من شأنه أن يولّد الرّغبة عند المتلقي ليقبل على الحديث ويستمع إليه، فإذا"لم يكن المستمع أحرص على الاستماع من القائل على القول، لم يبلغ القائل منطقه، وكان النقصان الداخل على قوله بقدر الخلة بالاستماع منه".[73] يظهر اهتمامه بهذا الجانب الذي يساعد على تهيئة المُخاطب لتلقي الخطاب وفهمه والتّفاعل معه.ولهذا الأمر حرص على التنويع في كتاباته والمزج بين الجد والهزل وهو القائل : "أوشح هذا الكتاب وأفصّل أبوابه، بنوادر من ضروب الشّعر، وضروب الأحاديث، ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب، إلى باب ...فإني رأيت الأسماع تملّ الأصوات المطربة، والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة، إذا طال ذلك عليها "[74].هي إذن دعوة إلى التنويع والترويح عن السّامع حتى لا يملّ فيعزف عن مواصلة الاستماع والانتباه للمتكلّم .

وقد حظي المتكلّم باهتمام كبير في نظرية "الخطاب الإقناعي" عند الجاحظ، لأنّه طرف أساسيّ في العملية التّواصلية، وهذا الاهتمام ينبع عن اعتقاده الثابت أن الخطيب المتمكّن هو الذي "يتفاعل تماما مع تفكير مخاطبيه وذلك بخلاف الخطيب الانطباعي الذي لا يهتم إلاّ بما يقتنع هو به، فهذا النوع من الخطباء حتى وإن كان بإمكانه التأثير إلاّ أن خطابه يظل في الغالب لسامعيه غير معقول وغير فعّال"[75]، لأنّ فعالية الخطاب هو ما سعى الجاحظ إلى ترسيخه والتأكيد عليه من خلال ما أثبته في مؤلفاته.

3.2.3-القصدية

يرى العلماء المهتمون بالجانب التداولي في الخطاب أنّه ومن أجل "تأويل العناصر التي ترد في خطاب ما، من الضروري أن نعرف من هو المتكلّم، ومن هو المستمع، وزمان

ومكان إنتاج الخطاب"[76] لذا عدّت القصدية من أهمّ المحاور التي تناولتها التداولية، لأنها من العوامل المساعدة على فهم الخطاب، ولارتباطها كذلك بالعملية التواصلية، حيث أنّها تدرس الآليات التي توجّه الخطيب عند إنتاج خطابه و"تساعد المتلقي على معرفة القصد"[77].فمعتقدات الخطيب وثقافته، ومقاصده، والمشترك العام الذي يتقاسمه مع مخاطبيه، والظروف المحيطة بإنشاء الخطاب كلّ ذلك يساعد في فهم الخطاب وبيان القصد منه.

وبالعودة إلى معجم لسان العرب تستوقفنا دلالة القصد" أن لا يقال عُنيت بحاجتك إلا على معنى قَصَدْتها، من قولك عَنَيْت الشيء أعنيه إذا كنت قاصدا له وعَنَيْت بالقول كذا أردت ومعنى كلّ كلام ومعناه ومعنيه، ومقصده"[78].، إذن هو القصد في الشيء، أو القصد في القول. ويؤكد العرب القدماء على ضرورة القصد في الدلالة، فما يفهم من غير قصد من المتكلّم، لا يكون مدلولا للفظ عندهم، فدلالة الخطاب ومقاصده مرتبطة بالخطيب وبالخطاب نفسه.

والجاحظ من الذين أفاضوا الحديث حول قصدية الخطيب، إذ عدّها من العوامل التي تحقق فعالية الخطاب ونجاحه يقول: "المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمتغلغلة في نفوسهم... مستورة خفية، وبعيدة وحسية، ومحجوبة مكبوتة... لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه.. إلا بغيره، وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تعود بها إلى الفهم وتجليها للعقل... وتجعل المهمل معبداً، والمقيد مطلقاً... وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجح... "[79]

ينطوي هذا القول على أبعاد تداولية، من خلال حديثه عن ضرورة استعمال المعاني، فالإخبار عن المعنى هو الذي يضمن تقريبه إلى الفهم، حيث يركز على ضرورة إفهام المخاطب، وإبلاغه محتوى الرسالة.

كما يؤكّد على خدمة المعاني لمقصد المتكلم، فالعلاقة الإلزامية بين القصد وانسجام النّص من القضايا التي اهتم بها الجاحظ، وعالجها بشكل مفصّل، وهو بذلك يتقدّم على ما توصّل إليه علم لسانيات النص، يقول في هذا المضمار: "إن الإعراب يفسد نوادر المُولّدين، كما أن اللحن يفسد كلام الأَعْراب، لأنّ سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة، وذلك المخرَج، وتلك اللّغة، وتلك العادة، فإذا أدخلت على هذا حروف الإعراب، والتحقق،

والتّثقيل، وحوّلته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء، وأهل المروءة، والنجابة، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه"[80] ليس من قبيل الصدفة أن يذهب الجاحظ هذا المذهب، ذلك أنّه ينظر إلى العملية التواصلية نظرة متكاملة بين جميع الأطراف – متكلم، وسامع، وخطاب-فبغياب أحد العناصر لن يحقّق الخطاب هدفه المنشود، وما تأكيده على الجانب الدلالي إلاّ لكون دلالة الألفاظ توجّه السّامع إلى مدلول الخطاب، وإن أسيئ استعمال هذه الألفاظ فسد القصد. بمعنى أن معاني الألفاظ مرتبطة ارتباطا وثيقا ببناء الخطاب، وهو ما أشار إليه روبرت دي بوجراند (Robert De Bojerand)من أنه يتوجّب على الخطيب أو الكاتب أن يدرك مدى استجابة المتلقي، ويخطط لتوجيه الخطاب نحو مقاصد بعينها [81]وعليه فنجاح الخطاب، يتحقّق إذا أدرك المستمع مقصد المتكلم وغايته من الرسالة.

كما أنّه لم يغفل في نظريته الجانب التأثيري الذي أكّدت عليه التداولية، وهو ما أشار إليه محمد العمري، إذ يرجع الفضل للجاحظ في تناوله البعد التداوليّ للخطاب في التراث العربي. ويكون بذلك قد سبق علماء العصر الحديث .وإن "هذا البعد -التّداولي-هو أحد الأبعاد الأساسية في البلاغة العربية، وهو بعد جاحظيّ في أساسه، وإن تخلي البديعيين عنه في مرحلة لاحقة أدى إلى اختزال البلاغة العربية وتضيق مجالها. وتحظى نظرية التأثير والمقام حالياً بعناية كبيرة في الدراسات السيميائية، ومن ثم وجب الشروع في إعادة الاعتبار إلى البلاغة العربية تحت عنوان جديد هو "التداولية"[82]، ويتوجب إعادة قراءة الموروث العربي والوقوف على مخزونه المعرفي والنّظر في الأدب العربيّ القديم شعرا ونثرا.

-خاتمة

كشفت هذه الدراسة على عدة نقاط منها:

-اهتم الجاحظ بالنص كنسيج متكامل، كما راعى علاقته بالملتقي، والمقام، باعتبار الإقناع ينظر إلى ما ينتجه من أثار في الملتقي، لذا لم تهمل النظرية اهتمامات الملتقي(لغته، قدرة استيعابه، ميوله، رغباته)

-أظهرت هذه الدراسة وعيه بخصوصية اللّغة العربية، وحرصه الشديد على امتلاك ناصيتها، ليخرج القول سليما، مؤثرا، لا يعتريه اللبس ولا الغموض، فيصعب على المتلقي فهمه.

-ربط الجاحظ بين البلاغة والخطاب التداولي، في إشارة منه إلى ضرورة تعالق الإمتاع بالإقناع من خلال حسن الصياغة.

-قامت نظريته البيانية على ثلاثة وظائف(الاخبارية، والحجاجية، واستمالة المتلقي) واستثمرها في مجال القول، ولعل بلاغته النثرية التي أقنعت عدداً ممن جاء بعده، بانتهاج المسالك التي ارتضاها لنفسه في الكتابة والتأليف، وشغلت اهتمام النقاد مع توالي العصور، حتى أصبحت من البلاغات التي يستأثر بها البحث الحجاجي المتصل بالدرس البلاغي الجديد، الذي لا ينفك يشتغل بدواليب الإقناع والتأثير، ولا يفتأ يتجدد، ويتحوّل بتبدل الأغراض، والمقامات، والمتلقين .

-يمكن لهذه النظرية أن تكون الدليل الداعي إلى ضرورة إعادة النظر في البلاغة العربية القديمة، على أساس تجديد الرؤية، وتجاوز مفاتيح المعالجة التقليدية، وبلورة مقاربات أكثر حياة وأكثر نجاعة وملاءمة للقبض على خصوصيات الخطاب البلاغي العربي، وربطه بالامتدادات الكائنة والممكنة له.

مراجع البحث وإحالاته

1 -محمد مشبال، البلاغة والسرد-جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، ط1، تطوان، المغرب، 2010 م، ص 9.

2- أبو القاسم البلخي، القاضي عبد الجبار، الحاكم الجنسي، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تح: فؤاد السيد، دار الفارابي، بيروت، 1947، ص27ص.

3-علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: كمال حسن مرعي، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت ج4، ص253

4-محمد مشبال، بلاغة النادرة، ط1، أفريقيا الشرق، المغرب، 2006م، ص 28

5-خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط1، بيت الحكمة، الجزائر، 2009م، ص75

6- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تح: بشار عواد معروف، ط1، دار المغرب الإسلامي، بيروت، 2002م ج12، ص214.

7- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1979م، ج1، ص301.

8-أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، تح: محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، مج1، المكتبة العصرية، لبنان، 1986م، ص19

9-السيد أحمد لهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، لبنان، 2002م، ص31 - 32

10- محمد مشبال :البلاغة والسرد-جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، ص 7.
11-الجاحظ، رسالة في البلاغة والإيجاز، تحقيق علي أبو ملحم، ص151.
12- محمد مشبال، البلاغة والسرد- جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، ص9
13-ستيفن أولمان، الكلمة، تر: كمال بشر، القاهرة، دار غريب للنشر والطباعة، القاهرة، 1997م، ص16
14-حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، دار الفكر العربي، القاهرة، 1993مص45
15- حسن طبل، المعنى الشعري في التراث النقدي، ط2، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م، ص12.
16- أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2010م، ص 23.
17- أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تح: عمر الفاروق الطباع، ط1، دار المعارف، بيروت لبنان، 1993م، ص192
18- هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية، ترجمة :محمد العمري، أفريقيا الشرق، المغرب، 1999م، ص 36.
19- ناصر سعيد، الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي(دراسة وصفية)، متطلب تكميلي لنيل درجة الدكتوراه في تخصص البلاغة والنقد، بجامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، تحت رقم(40-700-422)، إشراف الدكتور مجمد إبراهيم شادي، 2004م، ص160.
20- محمد مشبال، البلاغة والسرد، ص32.
21- الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، ج1، ص82
22- إبراهيم سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، دراسة تحليلية نقدية، طبعة منقحة ومزيدة، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة، 1952م، ص76.
23- محمد هيثم عز، البلاغة عند المعتزلة، ط2، دار الشؤون الثقافية للنشر، الأردن، ، 1993، ص86.
24- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، 1999، ص 200
25- انظر: المرجع نفسه ص212
26 –الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص96
27-الجاحظ، مقدمة البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ج1، ص2.
28-حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1981م، ص212
29-محمد هيثم عزة، البلاغة عند المعتزلة، ص86.
30- الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ص29.
31- المصدر نفسه، ج3، ص29
32-محمد مشبال: البلاغة والسرد-جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، ص64
33-الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ص30

34-حسن المودن، دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي، الحجاج مفهومه ومجالاته، "دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة "إشراف حافظ إسماعيلي العلوي، عالم الكتب اربد، الأردن، 2010، ج4. ص164

35-محمد هيثم عزة، البلاغة عند المعتزلة، ص90

36-الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 281

37-الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ص31

38- رابح العوبي، فن السخرية في أدب الجاحظ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1989م، ص389

39-الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ص36

40-رسالة ذكر مناقب الترك، (الرسائل السياسية)، ص509.

41-الجاحظ، البيان والتبيين، ج3، ص37

42-المصدر نفسه، ص37

43-الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط2، المطبعة الحميدية، القاهرة، 1965م، ج1، ص 154

44-الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص348.

45-المصدر نفسه، ج1، ص349.

46-المصدر نفسه، ج1، ص75.

47-المصدر نفسه، ج1، ص85.

48- المصدر نفسه، ج1، ص86

49-صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، ط1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 2001م، ص210

50-عبد الحكيم راضي، الأبعاد الكلامية والفلسفية في الفكر البلاغي والنقدي عند الجاحظ، ط3، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 2006م، ص66.

51- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص180.

52-الجاحظ، البيان والتبيين ج2، ص148.

53- داوود سلوم : النقد المنهجي عند الجاحظ، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2، 1960م، ص96

54-صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، ص88

55-عبد الرؤوف أبو السعد : الأداء النفسي واللغة العربية، ، ص42.

56-:داوود سلوم : النقد المنهجي عند الجاحظ، ص100

57- الدين أبو الفضلابن منظور، لسان العرب، مادة(خ. ط .ب) إعداد وتصنيف: يوسف خياط، تقديم: الشيخ عبد الله العلايلي، دار لسان العرب، بيروت، دت.

58- ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تح: حفني محمد شرف، دار الكتب المصرية، (لبنان)، 1966م، ص124

59-أبو هلال العسكري، الصناعتين "الكتابة والشعر"، تح: محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، ص99

60- المصدر نفسه، ص 99

61- الجرجاني السيد الشريف، التعريفات، ط2، منشورات محمد علي بيضون، ، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م، ص21.

62- القلقشندي، صبح الأعشى، ط1، دار الكتب المصرية، مصر، 1922م، ج14، ص 138

63-الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص346

64-الجاحظ، ا لبيان والتبيين، ج1، ص92.

65- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص187

66-الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 51.

67- المصدر نفسه، ج1، ص72

68-المصدر نفسه، ج1، ص72 -73-

69- أبو هلال العسكري، الصناعتين "الكتابة والشعر"، تح: محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، ص97

70- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص348

71- المصدر نفسه، ج1، ص55

72- المصدر نفسه، ج1، ص72

73- حسن المودن، دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي، الحجاج مفهومه ومجالاته، ص169

74- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص75

75- صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، ص147

76- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص247

77- المرجع نفسه، ص248

78- ابن منظور، لسان العرب، مادة(ق.ص.د) إعداد وتصنيف: يوسف خياط، تقديم: الشيخ عبد الله العلايلي

79- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص112

80- المصدر نفسه، ، ج1، ص 112-113

81-ينظر: محمد مشبال: البلاغة والسرد-جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، ص44

82-محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، إفريقيا الشرق، المغرب، 2002م، ص96

-قائمة المصادروالمراجع

1- إبراهيم سلامة، بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، دراسة تحليلية نقدية، طبعة منقحة ومزيّدة، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة)، 1952م

2- أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، ط1، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، (القاهرة)، 2010م

3-أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ط2، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية(بيروت) 1979م

4- أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، ط1، دار الكتب المصرية، (القاهرة)، 1922م.

5-البلخي، أبو القاسم، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، تح:فؤاد السيد، دار الفرابي، (بيروت)1947

6-جمال الدين أبو الفضل ابن منظور، لسان العرب، مادة(خ. ط .ب) إعداد وتصنيف: يوسف خياط، تقديم: الشيخ عبد الله العلايلي، دار لسان العرب، بيروت، دت.

7-الجرجاني السيد الشريف، التعريفات، منشورات محمد علي بيضون، ، دار الكتب العلمية، (لبنان)، 2002م

8-حسن طبل، المعنى الشعري في التراث النقدي، ط2، دار الفكر العربي، (القاهرة)1997م

9-حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، (القاهرة)1993م

10-حسن المودن، دور المخاطب في إنتاج الخطاب الحجاجي، الحجاج مفهومه ومجالاته، ط1، "دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة "إشراف حافظ إسماعيلي العلوي، عالم الكتب اربد، (الأردن)، 2010م

11-حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ط1، منشورات الجامعة التونسية، (تونس)، 1981م

12- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، تح: بشار عواد معروف، ط1، دار المغرب الإسلامي، (لبنان)، 2002م

13-خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط1، بيت الحكمة، (الجزائر)، 2009م

14- داوود سلوم : النقد المنهجي عند الجاحظ، ط2، عالم الكتب، (لبنان)، 1960م

15-رابح العوبي، فن السخرية في أدب الجاحظ، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، ، (لبنان)، 1989م

16-ستيفن أولمان، الكلمة، تر: كمال بشر، القاهرة، دار غريب للنشر والطباعة، ، (القاهرة)، 1997م.

17-السيد أحمد لهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ط1، ضبط وتدقيق وتوثيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، (لبنان)، 2002م.

18- صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، ط1، دار الفارابي (لبنان)، 2001م.

19-عبد الرؤوف أبو السعد، الأداء النفسي واللغة العربية، ط1، دار النمر للطباعة، (لبنان)، 1982م.

20- عبد الحكيم راضي، الأبعاد الكلامية والفلسفية في الفكر البلاغي والنقدي عند الجاحظ، ط3، مكتبة الآداب، (مصر)، 2006م

21-عبد السلام عشير، عندما نتواصل تغير-مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، ط2، إفريقيا الشرق، (المغرب)، 2012م

22-عمر بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط2، المطبعة الحميدية، (مصر)، 1965م

23-عمر بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، ط7، مكتبة الخانجي، (مصر) 1998م

24-عمر بن بحر الجاحظ، الرسائل الأدبية، الطبعة الأخيرة، قدّم لها وبوّبها :علي أبو ملحم، دار مكتبة الهلال، (لبنان)، 2004م.

25-محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ط1، دار الكتاب الجديد المتحد، (بيروت)، 2008م .

26-محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، إفريقيا الشرق، (المغرب)، 2002م

27-محمد مشبال: البلاغة والسرد-جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، (المغرب)، 2010 م

28-محمد الولي، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، ط1، دار الأمان، (المغرب)، 2006م.

29-المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: كمال حسن مرعي، ط1، المكتبة العصرية، صيدا، (بيروت)، 1982م.

30-ناصر سعيد، الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي(دراسة وصفية)، متطلب تكميلي لنيل درجة الدكتوراه في تخصص البلاغة والنقد، بجامعة أم القرى، رقم(40-700-422)، إشراف الدكتور مجمد إبراهيم شادي، (المملكة العربية السعودية)، 2004م

31- أبو هلال العسكري، الصناعتين الكتابة والشعر، ط3، تح: محمد البجاوي وأبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، (لبنان)، 1986م

32-هنريش بليت، البلاغة والأسلوبية، ط1، تر: محمد العمري، أفريقيا الشرق، ، (المغرب)، 1999م

32- ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، تح: حفني محمد شرف، دار الكتب المصرية، (لبنان)، 1966م